سام شلبي: موسيقى تعبُر القارات

ستيفان كريستوف*
ترجمة: زياد نجار

من خلال حبك تقاليد موسيقيّة متنوّعة المشارب عابرة للمحيطات، يقدّم سام شلبي، المؤلّف الموسيقيّ والعازفُ المقيم في مونتريال، لحنًا متميّزًا ينتمي إلى الموسيقى التجريبيّة المعاصرة، ولكنه مستوحًى أيضًا من موسيقى الأوركسترا الشعبيّة التي كانت رائجة في مصر في ستينيّات القرن الماضي.

يستكشف شلبي من خلال **أرض كوش** (Land of Kush)، وهو مشروعُه الأخير المتميّز بمداه الواسع، آفاقًا موسيقيّةً جديدةً، تجمع بين ممارساتٍ موسيقيّةٍ من الشرق الأوسط وأميركا الشماليّة. وعلى نقيض وسائل الإعلام السائدة في الغرب، التي تقدّم صورَ الحرب شكلاً نمطيًا للشرق الأوسط ، تقدّم موسيقى شلبي شكلاً فنيًا يجسّد علاقة امتزاجٍ معقّدةً ومتشابكةً بين الثقافات، متجذّرةً في روابط إبداعيّة تؤثر في صياغة هويّة المجتمعين معًا.

تضمّ مجموعة شلبي الموسيقيّة أكثرَ من ثلاثين عازفًا، ينتسبون إلى تقاليدَ موسيقيّةٍ متنوعة، ويعزفون على أكثر من أربع وعشرين آلة مختلفة، ويشكلون المجموعة الموسيقيّة التي قدّمتْ **أرض كوش**.

* ـ صحافيّ، وموسيقيّ، وناشط في العمل الأهليّ في مدينة مونتريال. http://www.twitter.com/spirodon

إحياء دار الأوبرا في القاهرة

«ما أثار اهتمامي بالعمل مع فرقٍ موسيقيّةٍ كبيرة خلال السنوات العشر الأخيرة هو اطّلاعي، في حقيقة الأمر، على الأوركسترات الكبرى في مصر التي كانت منارةً مضيئةً في الفضاء الثقافيّ للشرق الأوسط في ذلك الزمن.» هذا ما يقوله شلبي، مضيفًا: «تلك الحفلات في دار الأوبرا بالقاهرة كانت بمثابة القاعات العامّة في البلديّات، وكانت شديدة الانفتاح على تأثيراتٍ ثقافيّةٍ متنوعة. ولذلك فهي تشكّل نموذجًا جيّدًا جدًا.»

وعلى الرغم من تأثّر عمل شلبي الفنّيّ بعلاقته الوثيقة بكلّ من الشرق الأوسط ومدينة مونتريال، فإنّه يحتفي علنًا بتقاليدَ ثقافيّةٍ متأصّلةٍ في مصر، ويبني عليها. فعمله المعاصر يمتدّ إلى مصر في حقبة عبد الناصر، ليقدّم رؤيةً حاضرةً للمشهد الفنّي الحيويّ في تلك المرحلة التي ما زالت تشعّ تأثيرًا ثقافيًا حيًا على امتداد الشرق الأوسط (عمر خورشيد، الذي أدخل ارتجالاتِ الغيتار الكهربائيّ إلى حفلات أمّ كلثوم الأسطوريّة في القاهرة، هو أحد التأثيرات الواضحة في عمل شلبي مثلاً). من هذا التراث الزاخر ينهل شلبي موسيقاه التي يقدّمها من مونتريال. «إنّ أرض كوش هي نسختي من الموسيقى العربيّة،» يقول شلبي، مضيفًا: «قد يقول قائل إنّ عملي ليس موسيقى عربيّة. لكنّ الوقت الذي أمضيتُه في مصر زادني جرأةً، لأنّ هناك ـ وبكلّ بساطة ـ الكثيرَ من الموسيقى في القاهرة التي يزعمُ بعضُ الناس أنها ليست عربيّة، إلاّ أنها في الواقع موسيقى عربيّة فعلاً من تأليف مصريين يعيشون في مصر.» ويتابع القول: «في بعد الأحيان يتشبّث الناسُ برؤًى جامدةٍ عن الثقافة العربيّة. لكنّ الثقافة، في الواقع، كيان عضويّ، وفي حال تطوّرٍ دائمٍ حول العالم.»

مثّلتْ حفلاتُ دار الأوبرا بالقاهرة في عقودٍ خلت اختباراتٍ ثوريّةً في موسيقى ذلك الزمن، إذ مزجت موسيقى الشرق الأوسط التقليديّة بألحان الجاز الساكسوفونيّة وأنغام الغيتار الكهربائيّ، لتقدّم أغانيَ شعبيّةً عربيّة. اليوم يقوم فنّانون من مختلف أنحاء العالم بالبناء على هذا التراث الثقافيّ الضخم، وبأشكالٍ لافتةٍ وغير متوقّعة. ولا شكّ في أنّ فنّاني تلك المنطقة، كالمؤلّف والموسيقيّ اللبنانيّ الذائع الصيت زياد الرحباني، قد تأثّروا بهذا الجوّ الموسيقي التجريبيّ الحيّ الذي غذّته أوركسترالتُ مصر منذ عقود، فطوّروا تلك النوتات من شاطئ النيل في اتجاهاتٍ جديدة.

إنّ الفضاء الثقافيّ الذي أطلقه سباقُ الحفلات في القاهرة ما زال يحرّك موسيقيين من مختلف أنحاء العالم، شاهدًا على روح انفتاح قلّما وجد مكانَه في أشكال الأغنيات الشعبيّة المنمّطة التي تحتل أثير وسائل الإعلام الربحيّة من شمال أميركا والشرق الأوسط.

مقطوعات أدبيّة

بعيدًا عن أوركسترا مصر، يحمل الإصدارُ الأول لمجموعة أرض كوش اسم **Against the Day**، وهو مستوحًى من رواية للكاتب الأمريكيّ الغامض توماس پينشون عام ٢٠٠٦.

يشرح شلبي: «الكهرمغنطيسيّة هي أحد الثيمات في رواية پينشون، حتى لتتحوّل إلى شخصيّة تحدّد القوسَ القصصيّة.» ويزيد: «إنّ العلومَ والتكنولوجيا وروحَ العصر أمورٌ مركزيّة في كتب پينشون كلها. وأشياء كالضوء تتحول مادةً سردية. إنّ هذا النمط من التفكير هو الذي هيكل مقطوعات **Against the Day** الموسيقيّة.»

شلبي، الذي يقفز خلال أحاديثه بين القارّات، يرى تشابهًا بين تقنيّات پينشون الأدبيّة، التي غالبًا ما تركّز على المناخ الاجتماعيّ أو الظاهرة الاجتماعيّة لبناء الحبكة، وبين الأساليب الموسيقيّة التقليديّة المتّبعة في الشرق الأوسط. وهذه الإحالات الثقافيّة تُظهر بوضوحٍ الخارطةَ المتنوّعةَ للتأثيرات الثقافيّة التي تطبع أعمال شلبي:

«في أساليب التعلّم القديمة للموسيقى العربيّة، كما الموسيقى الهنديّة، يتمّ ربطُ الموسيقى بالشعر، واللون، وجميع الظواهر التي لا علاقةَ مباشرةً لها بتعلّم العزف على آلة معيّنة. وهذا يختلف جذريًا عن الكونسرڤتوار الكلاسيكيّ الذي نعرفه اليوم. لا شكّ في أنّ هناك تماثلاتٍ بين أسلوب پينشون الأدبيّ، وهذه التقاليد في الموسيقى العربيّة. فالسرد في **Against the Day** يتطوّر عبر أمورٍ كالضوء والكهرمغنطيسيّة. لهذا فإنّ رواية پينشون شكّلت مادةً منطقيّةً لمشروع **أرض كوش**.»

إنّ الأعمال الأدبيّة أمورٌ مهمّة جدًا بالنسبة إلى موسيقى شلبي، على نسق الأعمال الموسيقيّة السابقة التي استوحت من أعمال مفكّرين كالفيلسوف وعالم الاجتماع البارز والتر بنجامين. وإنّ السعي الدؤوب لتوجيه التأليف الموسيقيّ بالنصّ العميق لهو نقطةٌ مركزيّةٌ في عمليّة شلبي الإبداعيّة.

القاهرة وحالة الطوارئ البنجامينيّة

داخل نسيج عمل شلبي، ثمة إدراكٌ فاعلٌ للعلاقات المتشابكة بين الثقافات، تعبّر عنه الفنونُ والتيّاراتُ السياسيّةُ المضطربةُ التي تشكّل عالَمَنا.

«من الواضح أنّ الأحداث السياسيّة التي تجري في العالم العربيّ تتصل بشكلٍ وثيقٍ بما يحدث هنا في أميركا الشماليّة،» يشرح سام شلبي. «أحد الأشخاص في القاهرة شبّه أمريكا بـ 'عين الإعصار'؛ فهناك إحساسٌ في القاهرة بأنّ أميركا الشماليّة هي المكانُ الوحيدُ في هذا العالم الذي تفتقر فيه عامّةُ الناس إلى ذلك الشعور الملحّ بما أسماه والتر بنجامين 'حالة الطوارئ'، وهو شعور يتلمّسه الفردُ فعلاً إذا كان ذا وعي سياسيّ وثقافيّ.»

«أما في مصر فيعيش الناس في حالة طوارئ متواصلة، لأنهم يرزحون تحت دكتاتوريّةٍ مرتبطةٍ بشكلٍ حميمٍ بإسرائيل والولايات المتحدة،» يقول شلبي. «الناس في مصر يعيشون أملاً أكبر، ولكنهم أيضًا يعيشون خوفًا أكبر، لأنهم يصطدمون بحالة الطوارئ هذه.»

لا شكّ في أنّ الترحال المتواصل بين مونتريال والقاهرة، حيث الجذور العائليّة، قد خلّف تأثيرًا عميقًا في فكر شلبي الإبداعيّ. فهو في الحديث عن الوقت الذي أمضاه في مصر يتحدّث عن تجاربَ عاشها في القاهرة مع نشطاء اجتماعيين: «كان أول من التقيت في مصر، في الواقع، نشطاء اجتماعيين، وهو ما شكّل مدخلاً ممتازًا للتعرّف إلى القاهرة. فهم على الأرجح أفضلُ دليل لفهم المشهد السياسيّ في مصر، لكونهم أناسًا منفتحين وعميقي التفكير، ولكنهم في الوقت نفسه شغوفون بتغيير المجتمع المصريّ.»

التأليف عبر القارّات

عيد هو ألبوم صدر عام ٢٠٠٦، وقد أُلّف بشكل أساس في القاهرة، وهو أوّلُ تسجيل نابعٍ من السفر عبر القارات. إنه ألبوم حيويّ، يجمع بين ارتجاليّات رائعة لعودٍ منفردٍ ومعزوفاتٍ هي نتاجُ تعاونٍ مع مغنّين كالراحلة لهسة دي صلة Lhasa de Sela.

يقول شلبي: «من ناحية الموضوع، فإنّ **عيد** حصيلةُ جهدٍ لفهم صورة أميركا الشماليّة من الشرق الأوسط أو من مصر، من طرفي ومن طرف مصريين في القاهرة، من أجل إدراك ما يجول في خاطر القاهرة عن مكانٍ كأميركا الشماليّة، سياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا.»

إنّ عمل شلبي أمميٌّ بالتأكيد، من حيث تشديدُه، عبر الممارسة الفنّيّة، على أنّ الإبداع الثقافيّ، خلافًا للصراعات الحاليّة التي شكّلتها التقسيماتُ الكولونياليّة، عمليّة كونيّة متأثّرة تأثرًا كبيرًا بما هو محلّيّ، ولكنها أيضًا نتاجُ هويّاتنا التي تنحو بشكل متزايد نحو التعولم.

في عام ٢٠٠٢ صدر **أسامة**، الألبوم الذي حصد إعجابًا من قبل النقّاد. هو بمثابة سيرةٍ ذاتيّة، وعنوانه مأخوذٌ من اسم شلبي الأول. يتأمّل أسامة في الاضطرابات العالميّة التي نتجتْ من أحداث ١١ أيلول، ليوصل أفكارًا صادرةً من عقلٍ مبدعٍ متشكلٍ من التقاء تيّاراتٍ ثقافيّةٍ من نهر النيل في مصر إلى نهر سان لوران في مونتريال.

«كل ما يمْكنني قولُه هو أنّ هذا الألبوم وُلد من غيمة غضبٍ، وفرح، وحزنٍ، وعبثيّة غير إراديّة،» هذا ما يكتبه شلبي في ملاحظاته على الألبوم، مضيفًا: «لكنني آمل أن يعبّر عن شيء ما، عن فوبيا [رُهاب] العرب في عالم ما بعد ١١ أيلول، وذلك بشكل مفيد ومسلٍّ وصاخبٍ نوعًا ما.»

اليوم قَلَبَ شلبي تأمّلاتِه في أحداث ١١ أيلول إلى ممارسةٍ فنيّة فاعلةٍ عابرةٍ للثقافات، وذلك عبر فرقة «أرض كوش» الموسيقيّة التي حصدتْ إعجابًا ملحوظًا. وحاليًا يعمل على ألبوم ثانٍ في استوديوهات Hotel 2 Tango في مونتريال. وإنه مما لا شكّ فيه أنّ عمل شلبي يشكّل بديلاً موسيقيًا مهمًا يستأهل التتبّع على صعيد أميركا الشمالية.

إنّ ما يظهر للتوّ في مؤلّفات شلبي الفريدة هو فضولٌ موسيقيٌّ عميق. وهي تعكس أيضًا تجاربَ الشتات من الشرق الأوسط إلى أميركا الشماليّة. إنّ موسيقاه، إذ تتجاوز التعريفاتِ الجامدةَ للهويّة نحو مطارحَ ضبابيّةٍ ولكنها مدهشة، تحطّمُ الحدودَ، لتقدّم روحًا أمميّةً نحتاجها حاجةً ماسّةً في عالمٍ تمزّقه بشكل متزايد الحدود الوهميّة.

لمزيد من المعلومات عن شلبي زوروا: http://cstrecords.com/

مونتريال